

التسامح واللاتسامح ومُسببات العنف في الأديان التوحيدية عند محمد أركون

Tolerance, intolerance and the causes of violence in the monotheistic religions according to Muhammad Arkoun

عبد الحميد مرزوقي^{1*}، جامعة الجزائر 02، (الجزائر) hamidtayha@gmail.com

محمد شروف²، جامعة باتنة 01، (الجزائر): medych23@gmail.com

تاريخ إرسال المقال: 2020-11-24 تاريخ قبول المقال: 2020-12-07 تاريخ نشر المقال: 2020-12-31

الملخص:

يعد المفكر الجزائري محمد أركون (1928-2010) واحد من أولئك المفكرين الذين قدموا إسهامات كبيرة في قضايا الفكر العربي المعاصر وتحديدًا ضمن سياق تجديد الخطاب الديني، مقدما بمشروعه الفكري "نقد العقل الإسلامي" رؤية معاصرة حول سبل وآليات الارتقاء بالخطاب الديني نحو أفق يتلاقى فيه ومقولات الحداثة الفكرية تحديدًا، ففي هذا البحث نحاول الإشارة -من خلال رؤية أركون- إلى ماهية التسامح وشروطه التي ينبغي أن تقر بها الأديان الكتابية الثلاث بغية تجاوز ذهنية اللاتسامح التي تميز المجتمعات المتدنية، هذا التجاوز لن يتحقق إلا من خلال توافر الإرادة من أجل تطبيقها على أرض الواقع، إرادة يشترك فيها الجميع من أفراد وجماعات.

الكلمات المفتاحية: التسامح، العنف، الأديان الكتابية، اللاتسامح.

Abstract:

The Algerian thinker Mohamed Arkoun (1928-2010) is one of those thinkers who have made great contributions to issues of contemporary Arab thought, specifically within the context of renewing religious discourse, presenting with his intellectual project "Criticism of the Islamic Mind" a contemporary vision on the ways and mechanisms of promoting religious discourse towards a horizon in which it converges. And the categories of intellectual modernity specifically, in this paper we try to indicate - through Arkoun's vision - to what tolerance and its conditions should be recognized by the three scriptural religions in order to overcome the mentality of intolerance that characterizes religious societies. This transgression will not be achieved except through the availability of the will in order to apply it.

Key words : Tolerance, violence, biblical religions, intolerance.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

إن التعرّيج عن المشاريع الكاملة في الفكر العربي المعاصر ومساءلتها أضحي أمراً أكثر من ضروري، من خلال فتح النقاش حول مضامينها واكتشاف زوايا القوة في كل مشروع ومحاولة تفعيلها، وكذا زوايا الضعف لتجاوزها، ولعل مشروع محمد أركون الفكري والمعنون أساساً بـ "نقد العقل الإسلامي" من أعمق المشاريع التي تؤسس لرؤية جديدة وتصور يرتبط وقعا بالفرد العربي المسلم .

وبهدف مواصلة البحث حول مشروع أركون سنحاول في هذه الورقة أن نعرّج على رؤية المفكر المرتبطة بالعلاقة التي ينبغي أن تجمع الأديان التوحيدية الثلاث : اليهودية، المسيحية، الإسلام، والتمعن في نظريته التجاوزية للعلاقة المعروفة بين هذه الأديان الكتابية، والتي تتطوي في سياق فضاء التسامح والعيش المشترك المنبثقة أساساً من روح الأنسنة التي تميز مشروع محمد أركون الحداثي، والأنسنة مصطلح أركوني، وهو مصطلح مركزي في مشروعه وتشهد على ذلك الأعمال التي خصصها له، فأركون يسعى إلى تأسيس خطاب علمي حول التراث الإسلامي باعتباره ينطلق من هذه التداولية، وذلك من خلال إعادة قراءته نقدياً تموضعه في سياقه التاريخي والاجتماعي بعيداً عن كل أشكال الأسطورة والأدلجة كما يفعل غالبية المسلمين، متجاوزاً في نقده حدود الظاهرة الإسلامية ليصبح نقداً للعقل في الأديان السماوية الثلاث، في محاولة لتأسيس أخلاق كونية تقبل الجميع، هذا المحاولة يقول عنها تلميذ هاشم صالح بأنها " ليست إلا محاولة يائسة وشبه بطولية"¹.

تجاوز محمد أركون في رؤيته من نقد للعقل الإسلامي إلى نقد للعقل في الديانات التوحيدية الثلاث يرجع إلى مقدمه فكرية قوامها " أن الكل يشكو من نقائص وبحاجة إلى تغيير أو تعديل مواقفه التقليدية الموروثة"².

يدور محور هذه الورقة في فضاء المساءلة التالية :

يحث منهجياً أركون على ضرورة النقد الذاتي الصريح والراديكالي لكل تجارب الماضي وإعادة قراءة تراث الأديان الكتابية الثلاث على ضوء المستجدات الراهنة، وهذا النقد الذي يدعو إليه محمد أركون "لا يهدف البتة إلى أي شكل من أشكال التوفيق أو التلفيق فيما بين الديانات الثلاث ..إنما الهدف هو تقديم قاعدة إبستمولوجية صلبة مشتركة بغية الكشف عن كيفية حصول الصيرورة الاجتماعية والتاريخية المشتركة لتشكيل أنظمة الاعتقاد واللاعقاد"³

هذا الهدف الذي يصبو إليه محمد أركون ليس بالأمر البسيط ومن ثمة لن يتحقق إلا بعد تحقيق العديد من الآليات

المساعدة على ذلك، فبلورة هذه الرؤية الأركونية على المستوى النظري أمر غير كاف، إنما ينبغي أيضا توافر الإرادة من أجل تطبيقها على أرض الواقع، وهذه الإرادة يشترك فيها الجميع من أفراد وجماعات، ورجال الدين وسياسة لأن المسألة تتعلق بطرق التغيير طرق التفكير والتعامل، الأمر الذي يدعونا إلى طرح إشكال قوامه: ما هي الأسس والمرتكزات التي بنى عليها المفكر محمد أركون رؤيته التجاوزية للعنف واللاتسامح السائدة بين الأديان الكتابية التوحيدية؟

أما عن دوافع الاهتمام بهذا الموضوع، فيرجع أساسا إلى الرغبة في تجاوز المألوف في العلاقة التي تربط الأديان التوحيدية، من خلال تجاوز مختلف الرؤى والإيديولوجيات اللاغية الراضة لكل ألوان الاختلاف الفكري إلى فضاء الأنسنة القابلة لكل تعدد والمنتجة لجملة من القيم الكونية المشتركة.

المبحث الأول: محمد أركون ومشروع نقد العقل الإسلامي

اندثرت العبقورية الإنسانية المنتجة للأديان واللغات للأبد حسب تعبير أحد فلاسفة الأنوار، لم يبق للإنسان إلا القبول أو الرفض لوقوفه عاجزا أمام تاريخ طويل من اشتغال العقل البشري في التفسير والفهم للدين، الدين بقي كما ورثناه بينما أدوات تتناوله ووسائل معالجته وطرق فهمه وتفسير معانيه، تختلف من زمن لآخر إذ تبقى محكومة بظروف، ويعتبر تناول المسألة الدينية من المخاطر المستعصية على الركوب في زمننا هذا، زمن الحماقات المرتكبة باسم الدين "إذ تناول الدين بالدرس العلمي هو عند الكثير من رجال الدين إعلان حرب، يوصف بلفظ 'غزو' لكنه على مستوى الفكر غزو ثقافي غربي يحمل في دالاتها هذه اللفظة كل معاني الحرب إلا العلم"⁴.

في ظل هذه المعطيات انبثق نمط التجديد الديني الأركوني، ففلسفة التجديد عند محمد أركون لا تقف عند حدود الشكليات، والموضات والجزئيات، وليس مجرد مرحلة تاريخية يستدعي فيها الأمر تغيير بعض المبادئ والمنطلقات أو بعض الوظائف والأدوار الإستراتيجية، كما أنها ليست عملية استيراد للأدوات والتقنيات الحديثة، أو الأجهزة والخبرات، باختصار "فلسفة التجديدي لا ترتبط بالمعرفة والمنهج كمعلومات كمية وتراكمات نقدية، إنما ترتبط بهما كموقف ورؤية كلية للإنسان والعالم وقضايا الحياة المعقدة"⁵.

إن التجديد بالنسبة لمحمد أركون إستراتيجية شاملة لعلمنة الحياة، موقف للروح وهي تتاضل من أجل امتلاك الحقيقة، أو التوصل إلى الحقيقة، وكيفية التوصل إلى معرفة تحظى بالتوافق الذهني والعقلي لكل النفوس السائرة نحو الحقيقة بعض النظر عن اختلافاتها، هنا تكمن المسؤولية والمهمة المفتوحة أو المنفتحة باستمرار، إنها عمل لا ينتهي ولا يغلق، "وهذا يفترض من الباحث أن يتجاوز كل الخصوصيات الثقافية والتاريخية وحتى الدينية"⁶.

انطلاقاً من فرضية العقل الجديد، جاءت دعوى المفكر محمد أركون إلى الالتفاف حول مشروعه الفكري المسمى 'نقد العقل الإسلامي' بصفته مشروعاً علمياً شمولياً جماعياً، يخترق كل الخصوصيات الثقافية والعلوم الضيقة ويتجاوزها، إنه المشروع الذي يهدف إلى القراءة التحليلية المقارنة لكل أنظمة الفكر والتراث الثقافي المكتوبة والشفوية، فكل بحوث وأعمال محمد أركون الفكرية المعرفية في النشر والصدور تصبو كلها نحو تحقيق هدف أساسي هو خدمة المشروع وإيضاح مضامينه.

ولعل أهم فكرة حاول أركون تفكيكها من خلال مشروعه الفكري هي فكرة 'العقل الدوغماتي'، وهي الذهنية التي تميز نمط تفكير الخطابات الدينية التوحيدية الثلاث، ويقصد أركون بـ 'العقل الدوغماتي' بأنه "قوة بنيوية تفكيكية"⁷، هذه القوة التي تفرض قيوداً معرفية ومنهجية ليس على الفكر الإسلامي وحده وإنما على جميع ممارسات العقل البشري، فالعقل الدوغماتي عقل تقليدي، تكراري، اجتراري، مسجون داخل سياق دوغماتي مغلق.

"ومصطلح السياج الدوغماتي المغلق « la clôture dogmatique » من اختراع أركون، ويعني به أن المؤمن المسيحي مثلاً مسجون داخل عقائده الإيمانية التي يعتبرها مطلقة وكل ما عداها خطأ وضلال، والأمر نفسه عن المؤمن اليهودي أو الإسلامي⁸، بل حتى داخل الدين الواحد توجد أسيجة مغلقة أي مذاهب كل واحد منها يعتبر أنه هو وحده الصحيح والبقية ضلال في ضلال، فتفكيك هذه النمطية في التفكير الموسومة بالعقل الدوغماتي يعد الخطوة الأولى في بسط التسامح بين الأديان الكتابية الثلاث وتجاوز مسببات العنف المفضي إلى حالة اللاتسامح داخل المجتمعات المتدينة وهو ما يسعى إليه محمد أركون من خلاله مشروعه الفكري الذي قدمه بشكل مفصل.

المبحث الثاني: مدخل تأسيسي لمفهوم التسامح وثقافة العيش المشترك

قبل التعرّيج على آليات التسامح وثقافة العيش المشترك بين الأديان الكتابية لدى محمد أركون، ينبغي علينا ضبط المصطلحات الأساسية أركونياً، فينطلق أركون من أنه "لا يمكن أن نضع مفهوم التسامح على مسافة نقدية كافية منا"، بل لا يمكن ضبطه إبستمولوجياً إلا إذا عرجنا على مفهومي "اللاتسامح" و "الذي لا يحتمل ولا يطاق"، فاللاتسامح الفكري الملازم لكل الأنظمة اللاهوتية للاعتقاد / اللااعتقاد كان يعاش ويعتبر كقيمة إيجابية طوال العصور التي سبقت ظهور العقل الحديث، أي طيلة الفترة التي سيطر فيها التفكير اللاهوتي المنغلق الرافض لكل صور الاختلاف والقباعة تحت لواء الأنا، غير أن انتصار العقل الحديث وفرضه لنفسه في كل نواحي الحياة الإنسانية كشف الطابع السلبي والضيق جداً للتسامح الديني، هذا ما حصل في أوروبا بادئاً وبشكل تدريجي بداية من عصر التنوير، بالمقابل نجد أن العالم الإسلامي لا يزال يعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة، التسامح الذي يضمن لكل فرد/ مواطن حرية التفكير

والتعبير والنشر، هذا ما قاد محمد أركون للحكم على المجتمعات العربية والإسلامية بأنها تعيش تراجعاً إلى الخلف ذلك من خلال إدخال ثقافة التعصب واللاتسامح في البرامج الدراسية للتعليم الديني، مؤكداً على خطورة هذا الفعل باعتباره موجهاً إلى التلاميذ الصغار وبالتالي يصعب عليهم فيما بعد التخلص منه، وهذا ما يصفه أركون على أنه انحراف ديني لا يحتمل.

لذا يرى محمد أركون بأن التسامح "عملية صعبة لا تستطيع كل المجتمعات أن تضمنه أو تؤمنه لكتابها ومفكرها"⁹، وعليه فالتسامح مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى وعي المجتمع وتطوره .

فلا شك أن فضيلة التسامح فضيلة إنسانية مطلقاً، لذلك استقى محمد أركون من نصوص الأديان التوحيدية نقولاً تؤسس وقعاً لآليات التسامح بين الأفراد، مستندا كمثل على ذلك على الموقف الذي اتخذته يسوع المسيح من أولئك الذين يريدون أن يرحموا المرأة الزانية، عندئذ قال كلمته الشهيرة التي تدل بعمق على معطى التسامح: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بالحجر" وهو بهذا يتجاوز كل الأعراف والتشريع نحو فضاء التسامح الرحب، ليعرج أركون للاستدلال بالنص القرآني على مفهوم التسامح من خلال الآية التي تقول "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً"¹⁰، فالنص القرآني يعبر بوضوح على أنه من قتل نفساً واحدة، -والنفس بلفظ عام بدون تصنيف - فكأنما قتل البشرية جمعاء من خلاله، والمبدأ القرآني هنا مبدأ كوني"¹¹.

ولأن التسامح واللاتسامح في المجتمعات مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقدس أو الدين أساساً هذا الأخير يقاربه أركون هذا الأخير يقاربه محمد أركون على أنه "كتلة معقدة من التصورات والمعايير والطبقات الشعائرية والاعتقادات الإيمانية والمعرفية والمؤسسات وكل هذه الأشياء تؤثر على رؤيتنا للآخر بل وتتحكم بها"¹².

والواقع أنه ترسخت في العصور الوسطى ثلاث أنظمة "الدين الحق"، فاليهودي يقول بأن دينه وحده الحق، والمسيحي يقول الشيء نفسه، وكذلك المسلم عندئذ حصل النبذ وترسخ اللاتسامح بين الأديان الكتابية وكذلك الحروب المتكررة .

إن دراسة المعتقدات الدينية وممارستها والنتائج المترتبة عنها تدرج ضمن سياق علم الأديان وهو العلم الذي "يدرس الممارسة الإنسانية للدين من حيث هو من رقابة الإنسان على عالمه ووسيلة من وسائل تعريف الإنسان في العالم وحيال أشباهه من البشر كما يحلل علم الأديان علاقة الطبيعي بالخارق، العادي بالمقدس، المؤلف بالمعجز، السوي بالعجيب والمذهل، ويركز أخيراً على تحديد خصائص الظاهرة الدينية ذاتها"¹³ أما تاريخ الأديان فهو "الدراسة العلمية والموضوعية التي تتناول ديانات العالم القديمة والجديدة، هادفة إلى معرفة حقيقتها واكتشاف التشابه والاختلاف بينها لاستخلاص مفهوم الدين بشكل عام وتبيين خصائص الشعور الديني"¹⁴.

فعلاقة تاريخ الأديان بعلم الأديان هي أن الأول أشمل من الثاني لذلك فالأول يحتوي الآخر ويكون الثاني تابع للأول، ويشتركان في موقف الالتزام بموقف الحياد والموضوعية بنفس القدر اتجاه الأديان دون استثناء، لذلك، يجتهد لبلورة " لاهوت جديد عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة بين الأديان الثلاثة بالبحث عن قيم مشتركة وإقامة تواصل بين العقل العلمي والعقل الفلسفي والعقل الديني"¹⁵

التأصيل المفاهيمي من شأنه أن يوضح معالم المنظر الجديد الذي ينطلق منه أركون، والذي يتجاوز فيه التداولية التي ينتمي إليها، باعتباره ابن بيئة إسلامية، وعليه فهو يتجاوز القرآن وتفرعاته اللاهوتية ليشمل كل الأديان الكتابية، أو يعاملها بالطريقة ذاتها، ومن هنا يرى أركون بأن "الإسلام بحاجة إلى علماء دين ثوريين أكثر من حاجته أي مصلحين ليسلمهم جرأة كافية لملامسة المسلمات الدوغماتيقية المنتجة أو إعادة تمحيصها منذ القرن الثالث عشر ميلادي على الأقل"¹⁶.

المبحث الثالث: عوائق التسامح بين الأديان الكتابية

يموضعنا محمد أركون أمام العديد من العوائق التي قد ترهن عملية انتقال مفهوم التسامح وثقافة العيش المشترك من العقل إلى ممارسة واقعية، منطلقاً من تداولية إسلامية باعتباره يفكر من داخل أزمت البيئية الإسلامية، فينتج أركون إلى أن المعيق الأساسي للتسامح بين الأديان الكتابية مصدره "الموقف اللاهوتي التقليدي باعتباره موقف يؤسس للنزاع المتبادل بين النسخ الثلاث المتنافسة من دين التوحيد، أي اليهودية والمسيحية والإسلام، فلاهوتياً راح كل واحد من هذه الأديان الثلاثة ينبذ الدينين الآخرين ويكفرهما ، ويعتبر أنه هو وحده الدين الحق أو الدين الإلهي الصحيح"¹⁷.

يستدل أركون على هذه الانغلاقية اللاهوتية بنصوص مأخوذة من كل دين من هذه الأديان، وكذا الأعلام المنظرون لها التصور الضيق، مستشهداً بنص لابن خلدون " والذي يقول ما معناه :ينبغي أن يعم الإسلام البشرية كلها ولو بحد السيف أو بالجهاد لأنه موجه إلى البشرية كافة على عكس الأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية المحصورة بفئة معينة فقط"¹⁸

هذا النقد الموجه إلى ابن خلدون من طرف أركون يدل على الرؤية التجاوزية التي تميز الخطاب الأركوني، تجاوز لجملة "السياجات الدوغماتية المغلقة"، وهو مصطلح أركوني خالص، ويعني به "طريقة تمظهر ممارسة التدين من قبل الفاعلين لاجتماعيين، كنظام مغلق من العقائد واللاعقائد ضمن إطار مغلق"¹⁹، فالمسلم يؤمن بمجموعة من العقائد ويعتبرها صحيحة مطلقاً ولا تتناقش، وبنفس الطريقة لا يؤمن بما سواها من عقائد ويعتبرها لاغية مطلقاً، نفس الكلام يصدق على المسيحي كما يصدق على اليهودي، وهكذا تصبح كل ملة عبارة عن نظام من الإيمان واللايمان .

إن تشكل الفهم الأصولي لدى الأديان الثلاثة سرعان ما انجر عنه واقع عنيف متطرف، فرجال الدين في المسيحية (الباباوات) ألهبوا الحملات الصليبية المتتالية وقادوها عام 1090م، وكانوا قد استخدموا مصطلح " الحرب العادلة " وهو مصطلح أطلقه القديس أغسطينوس، ثم رفعها لمرحلة أعلى ولقبها بـ " الحرب المقدسة"، وهو مصطلح أقوى لاهوتيا من مصطلح "الحرب العادلة"، لأنها بهذا الشكل أصبحت الهيئة أو مفروضة من قبل الله ذاته " ²⁰، ذاك من أجل الوصول إلى بعث المسيحية كدين صحيح بمقابل أن كل الأديان الأخرى خاطئة ولا قيمة لها من وجهة نظرهم .

نفس المنطق موجود في التاريخ المرتبط بالبيئة الإسلامية، ونموذج صلاح الدين الأيوبي أحسن نموذج باعتباره " استخدم نفس العملية من أجل استعادة الأراضي التي كان الصليبيون قد احتلوها " ²¹، حيث جيش الجيوش المسلمين مستخدماً روح الجهاد " والجهاد في اللاهوت أو الفقه الإسلامي هو المقابل الحرفي للحرب المقدسة في اللاهوت المسيحي وهكذا نلاحظ أن اللاهوت الديني استخدم كسلاح فعال إبان تلك الحروب " ²²، وبهذا نجد أننا انغمسنا كلياً في المخيال الديني المشترك لللاهوت القرون الوسطى لدى مختلف أديان " ومن هذه الناحية لا يوجد فرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية " ²³.

ويشير محمد أركون إلى أن التفكير الديني الإسلامي المشكل للتراث قد ساهم في دفع الآخرين إلى نبذه "وذلك عن طريق التشبث بالمواقع الفكرية التقليدية واعتقاده بإمكانية المحافظة على فرادته اللاهوتية والحضارية القديمة" ²⁴، وعليه انغلق التفكير الديني على ذاته واضعاً سياجا دوعماتيا مغلقاً لا يقبل تعدد الآراء.

إن هذه الآراء المغلقة أفرزت رؤية اختزالية ترى في الإسلام هو النموذج المخلص ويقصد أركون بالإسلام " هو ذلك التدين كما يفهمه الأصوليون أو بالأحرى يتهمون به باعتباره أنه لا يوجد أي فهم تاريخي عقلائي للإسلام في العالم العربي أو الإسلامي ككل " ²⁵.

يؤكد محمد أركون أن معوقات التسامح وثقافة العيش المشترك بين الأديان التوحيدية يمكن حصرها في سبب جلي وواضح وهو سيطرة اللاهوت القروسطي على التفكير الديني ، والذي أفرز تصورات تربط الذات بالآخر ساهمت في انعدام آليات التسامح بين الأديان الكتابية " باعتبار أن المسلمين يمثلون الآخر بالنسبة للمسيحية الغربية، وكانت مكانتهم مكانة العدو أو الكفار المحميين أي أهل الذمة، تماماً كمكانة اليهود والمسيحيين في أرض الإسلام، وبالتالي عندما كان قويا مهيمنا مارس العملية نفسها " ²⁶.

احترام الآخر كانسان بغض النظر عن انتماءاته الدينية أو المذهبية شيء جديد لم يعرف إلا في عصر الحداثة الفكرية والفلسفية التنويرية حسب أركون، يتمظهر ذلك في انعقاد المجمع الكنسي التجديدي الشهير باسم مجمع الفاتيكان الثاني عام 1965م، عندئذ اعترفت المسيحية الكاثوليكية لأول مرة بالإسلام واليهودية

وحتى البوذية والهندوسية، ولم تعد تقول بأنها وحدها تملك الحقيقة الإلهية كما يحصل سابقا طيلة قرون وقرون.

هذه الإرهاصات الإيجابية الأولى للتسامح الديني التي برزت مع الحداثة الأوروبية لا يلغي أن هناك انعداما للحوار بين الأديان الكتابية اليهودية والمسيحية والإسلام لكن هذه الحوارات لا ترقى إلى ممارسة فعلية، يرجع هذا حسب أركون إلى "عدم احترام المؤمنين التقليديين للمعرفة العلمية المتعلقة بالظواهر الدينية"²⁷، وتقديم إيمانهم وبقيناتهم القطعية على المعرفة العقلانية وبراهينها لذلك يصعب الحوار مع المؤمن التقليدي وأحيانا يستحيل.

هذا لا يلغي أن محمد أركون يعترف بأن المسيحية الكاثوليكية (إيمان تقليدي)، قطعت أشواطاً نحو ترسيخ ثقافة العيش المشترك وحققت قفزة نوعية بالقياس إلى لاهوت القرون الوسطى التكفيري، "فقد جددت لاهوتها القديم وتخلت عن احتكار الحقيقة الإلهية المطلقة واعترفت بمشروعية الأديان بما فيها الإسلام الخصم اللدود"²⁸، واضعة حدا لمفهوم (الحرب المقدسة) والتي تقابل الجهاد في الإسلام، والتي أشعلت الحروب الصليبية في الماضي .

ليخرج محمد أركون على المؤتمرات التي تعنى بحوار الأديان مقدما لها نقدا لا ذعا باعتبارها ساهمت في تأخير الخروج برؤية تسامحية بين الأديان الكتابية، والتي تواصلت منذ المجمع الكنسي الشهير باسم الفاتيكان الثاني، حيث يرى أركون بأن هذه المؤتمرات "لم تحل دون تفاقم انحرافات الظاهرة الأصولية لأديان التوحيد بشكل خاص معتبرا مواضيع هذه الحوارات ما هي إلا مجاملات في غالبيتها، ولا تجرؤ هذه المؤتمرات على طرح الأسئلة الحقيقية على العقائد كي لا تخرج أجدا، وهي حوارات بالتالي لن تحل المشكلة"²⁹

فشل هذه الحوارات سواء "العربي /الأوربي" أو "الإسلامي /المسيحي /اليهودي" تعود في الأول إلى النظرة الأصولية التي ينطلق منها المؤمن التقليدي والتي يصعب مناقشتها وتفكيك بنيتها الشيء الذي يرهن نجاح هذه المؤتمرات الحوارية، لذلك يقدم أركون منهجية جديدة تتجاوز المنهج القديم في التعاطي بالأديان، فيرى أنه بدلا من حوقة أصوات مبعثرة تحتفل ظاهريا باحترام جميع الأديان، فنحن بحاجة إلى دبلوماسية تحقق إجماعا دوليا حول الشروط الضرورية والكافية من أجل أن تضمن عدم تدخل الأنظمة السياسية في الشؤون الدينية، ذاك نظرا لتأثيرها السلبي في الأديان عبر الأزمنة، الأمر الذي أنتج أصوليات يصعب الحوار معها . وكدليل على عدم نجاعة هذه الحوارات العاطفية، يجزم أركون بأن اللاهوت السياسي عاد للبروز في عصرنا هذا لكن دون الأنماط والصور التقليدية، بل بتشكلات جديدة " تحت اسم القطبين المتصارعين اللذين يتعذر التوفيق، قصدت الجهاد الإسلامي من جهة، وقطب العولمة الأمريكية من جهة أخرى "³⁰ ، هذا

الصراع تظهر آخر للمعوقات التي تعيق رسكلة ثقافة العيش وإشاعة روح التسامح بين الأديان الكتابية بشكل خاص .

خاتمة:

إن النزعة الإنسانية الكونية لدى محمد أركون لا بد أن تمر على أنسنة الخطاب الديني التوحيدي، بتمظهراته الثلاث، لذلك حاول أركون في مشروعه تجاوز الأنماط التقليدية التي تربط العلاقة بين الأديان الكتابية، لغية خلق ثقافة من التسامح تتجسد إلى تعايش اجتماعي مشترك موضحاً "بأن الإسلام لا يزال يعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة"³¹.

وعليه يضع أركون جملة من الآليات التي قد تبعث حالة من التسامح بين الأديان الكتابية، ذاك أن تحقيق ممارسة إيجابية وفعالة للتسامح يتطلب توفر شرطين أساسيين، شرط ذو بعد سياسي من خلال "وجود دولة حق وقانون، تضمن الحصانة المتساوية لحرية التعبير لكل المواقع الفكرية والعقائدية دون استثناء، أي لكل الأديان والفلسفات والمذاهب"³²، أما الشرط الآخر فذو بعد اجتماعي، ذلك أنه لتحقيق ثقافة العيش المشترك وجب "وجود مجتمع مدني متماسك ومتقدم ومتشعب إلى حد الكفاية بالثقافة الفلسفية والقانونية المتسامحة، ذلك لكي يلعب الدور الأساسي للشريك الحر والمتشدد مع الدولة، دولة القانون"³³، هنالك فقط تستلهم الدولة الهمة والقوة، وعليه لن تسقط بذلك دولة القانون ولن تركز لأحد سواء بالمحاباة أو التحيز لطرف ما بأي شكل من الأشكال.

هذه الشروط يرى محمد أركون بأنها تحققت وقعا في الأنظمة الديمقراطية التي تميز أوروبا الغربية، باعتبار أن هذه الأنظمة ألغت من دياباجاتها وديساتيرها مفاهيم الإلغاء، وكذا التصانيف من خلال القانون الخاص بالتحريف والكفر أو الجريمة وانتهاك المحرمات والذي حذف من الدستور أو أبطل بكل بساطة.

قصارى القول يمكننا القول أن محمد أركون يؤسس لرؤية جديدة تتمركز داخل محور نقد العقل الديني في الأديان التوحيدية، كل ذلك من خلال نقد للتراث والعقل والتاريخ الإسلامي ودراستهم دراسة علمية تاريخية، هذه الدراسة التي يراها محمد أكون أكثر من ضرورة من أجل النهوض والتحديث أو التحرير الفكري وهو الهدف الذي يتطلب توفر إرادة الجميع لتحقيقها على المدى البعيد، هذا ما يصعب إيجاده في ظل المعطيات الحالية والتنافس الشديد وسيطرة لغة المال والقوة على لغة العلم والمعرفة، فالحوار المثمر بين الأديان التوحيدية وتغيير النظرة المشوهة فيما بينها كل هذه المقترحات قد تصطدم بصلابة المواقف التقليدية ومثانة الاسيجة الدوغماتية الرافضة لكل طرف من الأطراف الأخرى، ومن ثم يبقى تطبيق وممارسة التسامح بين هذه الأديان حبيس الجانب النظري فقط وعليه تظل مقترحات أركون أقرب إلى الطوباوية الحاملة.

بهذا يقدم محمد أركون رؤية جديدة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الأديان التوحيدية من خلال مشروعه الفكري، هذه الرؤية تبلورت من داخل الإسلام والذي تبلور عنه عقل إسلامي بمفهوم وخصائص ذات خلفيات وأبعاد دينية ترتب عنها جدلية بين العقل الديني المنفتح وبين العقل الديني الدوغماتي والصعوبة اليوم تكمن في كيفية تحرير العقل النقدي من القيود والسياجات الإيمانية الابستيمولوجية التي فرصها العقل الدوغماتي على المجتمعات وعلى الأفراد.

الهوامش:

¹ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ت: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط1، 2011، ص 10.

² المصدر نفسه، ص 306

³ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 214.

⁴ مجموعة من المؤلفين، قراءة في مشروع محمد أركون، قراءات في مشروع محمد أركون، منشورات مخبر الدراسات الفلسفية والاكسيولوجية، جامعة الجزائر 02، ط1، 2011، ص 07.

⁵ مجموعة من المؤلفين، أعلام تجديد الفكر الديني، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بيروت، ط1، 2016، ج1، ص123.

⁶ محمد أركون، العلمنة والدين والإسلام، دار الساقى، بيروت، ط3، 1996، ص 10.

⁷ محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ت: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2000، ص 07.

⁸ مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفلسفة العربية المعاصرة، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2014، ص 511.

⁹ محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ت: هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص 246.

¹⁰ سورة المائدة، الآية 32.

¹¹ محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ص 246.

¹² محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 319

¹³ عادل العوا، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1997، ص 29

¹⁴ عادل العوا، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ص 29.

¹⁵ محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ت: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، ص 348.

¹⁶ محمد أركون، من مهاتن إلى غاندي ما وراء الخير والشر، ت: عقيل الشيخ حسين، دار الساقى، ط1، ص 47.

¹⁷ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 87.

¹⁸ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 116.

¹⁹ مجموعة من المؤلفين، قراءة في مشروع محمد أركون، ص 47.

²⁰ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 88.

²¹ المصدر نفسه، ص 88.

²² المصدر نفسه، ص 89.

²³ المصدر نفسه، ص 91.

²⁴ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 330.

²⁵ المصدر نفسه، ص 337.

²⁶ المصدر نفسه، ص 327 .

²⁷ المصدر نفسه، ص 110.

²⁸ محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص 87.

²⁹ المصدر نفسه، ص 110.

³⁰ المصدر نفسه، ص 93.

³¹ المصدر نفسه، ص 224.

³² محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية ، ص 225.

³³ المصدر نفسه، ص 225.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

- عادل العوا، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ط1، منشورات عويدات، بيروت.
- مجموعة من المؤلفين، أعلام تجديد الفكر الديني، ط1، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بيروت، 2016.
- مجموعة من المؤلفين، قراءة في مشروع محمد أركون ، ط1، منشورات مخبر الدراسات الفلسفية والاكسيولوجية، جامعة الجزائر 02، 2011.
- مجموعة من المؤلفين، موسوعة الفلسفة العربية المعاصرة، ط1، منشورات ضفاف، بيروت، 2014.
- محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ت: هاشم صالح، ط1، دار الساقى، بيروت، 2011.
- محمد أركون، العلمنة والدين والإسلام، ط3، دار الساقى، بيروت، 1996.
- محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ت: هاشم صالح، ط1، دار الطليعة، بيروت.
- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، تر: هاشم صالح، ط2، دار الطليعة، بيروت، 2000.
- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، ت: هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- محمد أركون، من مهاتن إلى غاندي ما وراء الخير والشر، ت: عقيل الشيخ حسين، ط1، دار الساقى.